

جمالية التعالق الدلالي بين الرحلة والاعتراب والتصادم الحضاري في الرواية العربية المعاصرة مقاربة موضوعاتية في رواية "عازف الغيوم" لعلي بدر

The Aesthetic of Semantic Interrelation Between Journey, Alienation, and Civilizational Clash in Contemporary Arabic Novel: A Thematic

Approach to "The Cloud Player" by Ali Badr

حليمة قاجوج¹ / كمال بولعسل²

Halima kadjoudj¹ / kamel boulassel²

مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة

جامعة جيجل، 18000 جيجل (الجزائر)

University of jijel, 18000 jijel (Algeria)

halima.kadjoudj@univ-jijel.dz¹ / kamel.boulassel@yahoo.fr²

تاريخ النشر: 2024/09/02

تاريخ القبول: 2024/06/04

تاريخ الإرسال: 2024/03/21

ملخص البحث

تروم هذه الورقة البحثية إلى تتبع مواطن التعالق الدلالي بين مصطلحات "الرحلة" و"الاعتراب" و"التصادم الحضاري" وتأثيراتها العميقة على الفرد والمجتمع، بما في ذلك التحديات النفسية والاجتماعية التي يواجهها الأفراد في ظل التغيرات الثقافية الطارئة أثناء الانتقال الاضطرابي من بيئة إلى أخرى، كما تقوم باستنطاق مختلف المواضيع الحضارية والثقافية المتعارضة التي تظهر بين تجايد الذاكرة في رواية "عازف الغيوم" لعلي بدر، ولعل أبرز منهج يعيننا على مقارنة هذه الدراسة هو المنهج الموضوعاتي، كونه الأنسب لاكتشاف الآثار السلبية التي تخلفها الرحلة الاضطرابية في نفوس الشخصيات الروائية، مما يسهم في زيادة حدة الصراع بينها، وهذا يستدعي طرح الإشكالية الرئيسية في هذا البحث، والتي تكمن في كيفية تناول الرواية العربية المعاصرة ثيمة الرحلة والهجرة والاعتراب؟ والتأثيرات التي تخلفها هذه التجارب على شخصيات الرواية، وعلى التحولات الداخلية المتعلقة بطريقة عرض الأحداث الروائية وسردها؟

ولعل أبرز نتيجة تم التوصل إليها هي إدراك العلاقة الجمالية بين مصطلح الرحلة الذي يؤدي بالضرورة إلى الشعور بالاعتراب نتيجة الاختلاف النسبي بين ثقافة الوطن الأصل والدولة المضيفة K مما يزيد من حدة

¹ حليمة قاجوج: halima.kadjoudj@univ-jijel.dz

التصادم الحضاري بين الشخصيات الروائية، وإن دلّ ذلك على معنى، فإنما يدل على الجدلية الأزلية بين الأنا الشرقي والآخر الغربي. الكلمات المفتاح: تعلق دلالي، رحلة، اعتراق، تصادم حضاري، تغيرات ثقافية، رحلة اضطرابية.

Abstract :

This study delves into the nuanced semantic connections among journey, alienation, and civilizational clash, and their significant effects on personal and collective identities within modern Arabic literature, focusing on Ali Badr's "The Cloud Player." It examines the cultural and civilizational dialogues emerging from the narrative's exploration of memory and identity, utilizing a thematic analysis to highlight how forced journeys affect characters' psyches and escalate conflict. The research investigates the portrayal of journey, migration, and alienation in contemporary Arabic narratives and the ensuing transformations in narrative structure and character development. A key finding is the emergence of an aesthetic dynamic from the journey motif, leading to alienation due to cultural contrasts between origin and host societies, thus intensifying the narrative's civilizational conflict and symbolizing the perpetual dialectic between the Eastern Self and the Western Other.

Keywords: Semantic Interrelation, Journey, Alienation, Civilizational Clash, Cultural Changes, Forced Journey.



مقدمة:

طالما عكست الرواية العربية المعاصرة مختلف التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي شهدها العالم العربي في العقود الأخيرة، وقد ركزت اهتمامها على المواضيع العصرية التي تستفز عقول القراء كشيمة الرحلة والاعتراق، إذ سلّطت الضوء على تجارب الأفراد والمجتمعات في مواجهة مختلف التحديات والتغيرات الطارئة على الساحة الثقافية، حيث نلاحظ ثراء فكريا واختلافا واضحا في طريقة تصوير المواضيع المتعلقة بهذا الجانب من الدراسة، فمن الكتاب من تناول موضوع الرحلة القسرية (الهجرة غير الشرعية) التي يضطر فيها الإنسان إلى ترك موطنه بشكل غير طوعي، بسبب الحروب والنزاعات، أو الكوارث الطبيعية، أو تفاديا لنقل الوباء

ونشره. ومنهم من تطرّق إلى الهجرة الثقافية لتوضيح فكرة التصادم الثقافي بين الحضارات الإنسانية المختلفة، وأيضًا التحدث عن فكرة الاعتراب الثقافي وسلبات الانفصال عن الوطن الأم والثقافة الأصلية.

بهذا المنطق، تُعد الرواية العربية المعاصرة مرآة نقدية تعكس تجارب حياتية مختلفة، وتقدم تحليلًا عميقًا لتأثير تلك التجارب على الفرد والمجتمع والثقافة، إذ توفر هذه الروايات فرصة للتأمل والتفكير في التحولات التي تشهدها المجتمعات والعلاقات الإنسانية في عصر العولمة، رغم اعتبار هذا الأخير مسرحًا للصراعات الحضارية والثقافية نتيجة اختلاف الديانات والقيم والعادات والتقاليد بين الشعوب، ويمكننا تمثّل هذا الصراع في رواية "عازف الغيوم" لعلي بدر، من خلال شخصية "نبيل" الذي عايش ظروف الاعتراب والانفصال الذاتي بجميع أنواعها (القبلي/البعدي)، وتقبّل فكرة الهجرة كمنهج حيائي للهروب من الماضي المأساوي الذي لازم دولة العراق ردحا طويلا من الزمن، وللتعرّف على الآخر الأجنبي والتعايش معه في سلام وتفاعل إيجابي، مع ضرورة الاحترام المتبادل للثقافات والتقاليد المختلفة والحريات الشخصية التي يتمتع بها الغرب العلماني دون غيره من البلدان. ولعل الإشكالية الرئيسية لهذا المقال تتمحور حول الكيفيات التي تتجلى فيها العلاقة (على مستوى الدلالة) بين ثيمة الرحلة والاعتراب والتصادم الحضاري في رواية "عازف الغيوم"، وما ستقوم به في الصفحات القادمة هو الإجابة عن التساؤلات المحورية المنبثقة عن هذه الإشكالية، والتي يمكن طرحها في النقاط التالية:

■ كيف يتم تمثيل ثيمة الرحلة في الرواية؟ وما العناصر الفنية والموضوعاتية التي تسهم في بناء هذا التمثيل؟

■ ما هو دور الاعتراب في تكوين الهوية الفردية لشخصيات الرواية؟ وكيف يتم تجسيد هذه الثيمة بواسطة الأحداث والانتقالات المكانية داخل النسق السردى المدروس؟

■ كيف يتم تجسيد ثيمة التصادم الحضاري في سياق الرواية؟ وما هي الأحداث أو الشخصيات التي تبرز هذا التصادم بوضوح؟

■ كيف تعبّر رواية "عازف الغيوم" عن العلاقة الجمالية بين ثيمات الرحلة والاعتراب والتصادم الحضاري، وما تأثير هذه القضايا على تطور الأحداث والشخصيات الروائية؟

■ هل تقدم رواية "عازف الغيوم" رؤية نقدية لعلاقة الإنسان بالمجتمع والبيئة في سياق التصادم الحضاري بين الشرق والغرب؟

استجابة لهذا الطرح الإشكالي تهدف هذه المقاربة إلى استكشاف الكيفيات التي جسدت هذه الثيمات في النص الأدبي المدروس وتأثير ذلك على تشكيل الهوية والوعي الثقافي لشخصيات الرواية، معتمدين في استظهار ذلك على آليات المنهج الموضوعاتي، الذي يركز على استنطاق المواضيع الاجتماعية والثقافية المهيمنة في الرواية كالهجرة غير الشرعية، والاندماج الثقافي، والانصهار السلبي، والمقارنة الهوياتية... وتحليلها تحليلًا

سوسيو ثقافيا من أجل توضيح الخلفيات الثقافية التي أسهمت في بلورة هذه المفاهيم وتجميعها في سياق أدبي واحد، والذي يتمثل هنا في رواية "عازف الغيوم" لعلي بدر.

أولاً: من أدب الرحلة إلى أدب الهجرة: بحث في تطور المفاهيم الثقافية والأدبية:

1. الرحلة واستكشاف الآخر؛ دراسة لتفاعلات الثقافة وتأثيرها على الوعي الذاتي:

عُرف الإنسان العربي منذ القديم بكونه رحالة، يدفعه البحث الدؤوب عن الماء والكلأ إلى السفر أميالاً بعيدة لأجل تحقيق استقراره المادي، وإيجاد منفذ يضمن له سيرونة نسله وبقائه، فكان يجوب الأرض ضارباً في أعراقها، باحثاً عن الحقيقة في الآخر المختلف عنه ديناً وثقافة، فالإنسان حسب شوقي ضيف «ولد رحلاً، وإن أعجزته الرحلة، تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، ونجد ذلك مبثوئاً في الأساطير الأولى، كما نجد ماثلاً في الحروب والفتوح القديمة»¹، حيث النقوش والرسومات تعبر عن إبداع الإنسان وسعيه في النفوذ والسيطرة، مما يثبت عراقة فعل الرحلة الذي يعد من «أهم المصادر المشكلة للمعرفة والموتدة للعلاقات الإنسانية بين الشعوب»²، فمن خلالها استطاع الإنسان امتلاك زمام المعرفة وإدراك اختلافه وأهميته، وما اكتمل له ذلك إلا بمغادرة الأوطان نحو الآخر، على أن «ثمار الرحلة لا تتوقف عند التعارف أو صقل الشخصية أو كشف المجهول من طبائع الشعوب، لكنها تجود بالمكاسب العلمية والأدبية التي قد يتعذر حصرها؛ خاصة إذا كان الرحالة متمتعاً بقوة الملاحظة وشهوة التطلع ويقظة الحواس، وحب المحاورة والرغبة في التحصيل والحرص على التدوين والتسجيل»³، وهذا ما يؤدي بالطبع إلى توسيع المعرفة وتعميقها، عبر توثيق ما تجود به قريحة الرحالة من علوم مكتسبة ومعلومات جديدة حول مختلف المجتمعات وطريقة تعايشها مع الغرب والمختلف.

وقد ظهر نتيجة لذلك ما يسميه النقاد "أدب الرحلة" كوسيلة لكتابة ما يراه الرحالة خلال سفره نحو المكان الهدف وحتى عودته إلى وطنه الأم، مستنجداً بمكتسباته القبلية حول تلك البلدان، وما اخترنته الذاكرة من أقوال ومشاهد، يدونها في مذكرات وكتب خاصة، لتأكيد رغبته في إيصال ما رآه للمتلقي، ووصف ما شاهده من غرائب كونية، دفعته إلى التأمل في عظيم المخلوقات وجميل المصنوعات مما لم يجد لها أشباهاً في بلاده، وبذلك يغري المتلقي ويدفعه إلى إعمال ملكة الخيال لديه، عن طريق إغوائه الدائم بما جد من أساليب لغوية تدفع به دفعا نحو تتبع مواطن الجمال في الوصف والتعليقات، واستحضار جدلية الأنا والآخر التي يشكلها التصادم الحضاري بين ثقافة الراوي والثقافة الأخرى، وتعد هذه النقطة أبرز قضية نقدية ركز عليها الدارسون في تقديمهم لتعريف نقدي لمصطلح "أدب الرحلة".

بداية لقد اشتغل النقاد العرب على تفكيك هذه الجدلية، وفضح المرجعيات الفكرية التي خلفت ذلك الصراع الأزلي بين الأنا والآخر؛ هذا الأخير يتخذ في التمثل الشائع «معنى تنحصر دلالاته في الآخر المتميز عن الأنا الفردية أو الجماعية. وتكون أسباب هذا التميز إما مادية جسمية، وإما عرقية أو حضارية أو فروقا جوهرية أو طبقية. ومن هذا المنطلق ندرك أن مفهوم الغير في الاصطلاح الشائع يتحدد بالسلب، لأنه يشير

إلى ذلك الغير الذي يختلف عن الذات ويميز عنها، ومن ثمة يمكن أن تتخذ منه الذات مواقف، بعضها إيجابي كالآخي، والصدقة، وأخرى سلبية كاللامبالاة، والعداء⁴، إلى غيرها من التمثلات الخيالية التي تسيطر على الأنا باعتبارها منبع الفكرة، فهي المشكلة لشعور التوتر داخل ذاتها اتجاه الآخر، ومن ثم تنجح إلى الدفاع عن نفسها باستهداف نقاط الاختلاف والتميز في كلا الجنسين، فتحاول الانتصار لعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها على حساب الآخر؛ وهذا يرجع إلى تضخم أنا الرحالة الذي غالبا ما يتقدم مدفوعا «بحس الفاتحين، تحذوه نزعة طهرانية نقية متعالية، ويترتب عن ذلك أن يضيف إلى سئاته، وسئات أشياء وثقافته ما ليس منها، وحتى حين يتصادف أن ينطلق الرحالة من واقع تكون فيه بلاده مهزومة ومتخلفة، وثقافته مهزوزة ومترجمة، فإن هذا الحس من التعالي والطهرانية لا يكاد يغادره، وكأنه يرضي بذلك جرحا نرجسيا، أو يحقق عدالة شعرية»⁵، وهذا يحسد نوعا من الاستعراض الثقافي الذي قد يتجاوز حدود الفخر إلى الغرور بالذات والاستعلاء على الآخرين، أو قد يكون هذا الشعور بالتعالي والطهرانية ناتجا عن رغبة الإنسان في التغلب على الاستحواذ الثقافي الأجنبي وإظهار الفخر بالهوية الوطنية التي ينتمي إليها.

وفق هذا المنحى تمكنت الرحلة بفضل هيمنتها على الأجناس الأدبية الأخرى، وقدرتها على التجوال الحر في الزمان والمكان أن «تتيح للمتلقى مواجهة أسئلة تثيرها الحياة، تدور حول "الأنا" وما يعترضها من أزمات في أثناء تشكيل هويتها، خصوصا حين يصطدم بالآخر. فتتضح أمامه إشكالية الأنا والآخر، وتبدي له التشوهات التي تحاصر الذات، مثلما تحاصر الآخر»⁶، ومنه تتجسد هذه الجدلية عبر مجموعة من «الرؤى والأنماط والصور المتقابلة سواء كانت سلبية أم إيجابية تترجم لنا ثنائية الشرق والغرب، وثنائية الذكورة والأنوثة، وثنائية التقدم والتخلف، وثنائية العلم والجهل، وثنائية المادة والروح»⁷، إضافة إلى الثنائية المحورية في هذا المقال (الاعتناء / الاعترا ب)، إلى غيرها من الثنائيات الضدية التي تتوارى كأنساق ثقافية مضمرة خلف التراكيب اللسانية المصاحبة للوصف المشهدي، والتي تعمل على تأجيج الصراع بين الذات المتردة، والآخر الذي يسعى إلى اغتصاب الهوية ومسحها عن طريق إلغاء الاختلاف والدعوة إلى الوحدة الثقافية.

وقد ركز النقد في تعريفهم لأدب الرحلة على هذا الجانب، حينما وجهوا قبلتهم نحو تتبع مراكز الصراع والجدل بين الذات الرحالة والآخر الأجنبي، حيث عُد أدب الرحلة حسب هذه الجدلية مبحثا أدبيا «يدخل في درس "الصورولوجية" أي دراسة شعب بيد شعب آخر»⁸، هذا المفهوم يستجلب لنا مصطلحا نقديا آخر، لا يقل أهمية عن سابقه، هو مصطلح "الصورولوجية"، الذي تم تداوله واستعماله في الدراسات المقارنة، لما عמד النقد إلى استكناه طبيعة العلاقة بين الذات والآخر في الأعمال الأدبية، ويعزف في الكتب النقدية بأنه «ذلك الجانب من الإبداع الذي يقدم صورة واضحة المعالم عن الكيفية التي يكون عليها شعب أو وعيه في لحظة معينة، والكيفية التي يرى بها الشعوب الأخرى وقت التماس معها أو التفكير فيها أو الإشارة إليها»⁹، ويتجلى ذلك عبر إظهار الاختلاف الكائن بين المجتمعات في طريقة التعامل والدفاع، وذلك بتحديد الفوارق عبر

مستويات عدة، بداية من اللباس والأكل والمعتقد، وغيرها من مشكّلات الثقافة ومكوناتها القازة في كل مجتمع، فتكون الرحلة حسب هذه التوليفة «لقاء بين منظومتين ثقافيتين، مختلفتين، ونظامين إيديولوجيين، وعلى طرفي نقيض، وبذلك توفر الرحلة حقلا للصراع والاحتدام والمغالبة؛ كما يمكن أن توفر مجالا للمثاقفة والتفاعل والتواصل»¹⁰، فتستحيل الرحلة عملة ذات وجهين؛ وجهٌ يعمد إلى ذكر ما استوقف الرحالة من أساليب عيش وفنون مقاومة وطقوس تعبير عجيبة، تغري القارئ وتشده نحو استشعار جبالها الكامن، ووجه يندد بأساليب المواجهة التي تكشف عن تخوف وتردد في تقبل الآخر المختلف، والتي غالبا ما تظهر في أفعال معادية، كقطع الطريق، وحبس الغريب، ودفعه إلى الاستغناء عن ماله وكرامته نجا بنفسه من الموت والعقاب.

ومع هذا تجدر الإشارة إلى أنّ "الغريبة" ركيزة هامة في تشكيلة الخطاب الرحلي، إذ تشكل بالنسبة للرحالة الراوي «جزءا أساسيا في بناء المرحلة من كافة المستويات، باعتبار أن السفر هو "مرآة الأعاجيب"، ومرآة النفس التي لا ترى تفاصيلها إلا بالانتقال والاعتراب والاحتكاك مع آراء وسلوكات وتقاليده الغير، واصطدام ببعضها والتوافق من البعض الآخر»¹¹، فالذات لا تتعرف على نفسها إلا من خلال الاختلافات التي تدركها نتيجة احتكاكها بالآخر المختلف عنها، في معظم التفاصيل المولدة لمرتكزات العلاقة الجامعة بينها. ولهذا كانت الرحلة فطرة إنسانية، تقتضي مغادرة الأوطان، لاكتشاف الذات، لأنّها تعد نوعا من الحركة «وهي أيضا مخالطة للناس والأقوام، وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة. لذا كان للرحلات قيمة تعليمية من حيث إنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين»¹²، فهي المرآة الكاشفة عن حسيات مثيرة متخفية داخل كينونة الذات المتألمة في سر الاختلاف والتجاذب بين طبقات اجتماعية مختلفة المشارب والإيديولوجيات.

2. مسارات الهجرة: تحليل لتجارب الانتقال والتغير من الرحلة الاستكشافية إلى الهجرة الاضطرارية:

استكمالا لما تم طرحه سابقا، يشكّل الاختلاف والتجاذب بين الثقافات الإنسانية أزمة نفسية في ذات الكاتب الرحالة، والتي عادة ما تكون ناتجة عن الاصطدام الحضاري بين ثقافتين مختلفتين، إذ يخلق ذلك التصادم نوعا من الاعتراب، الذي يظهر بين تعاريج النص الرحلي أو الروائي، كالتفاتة بصرية، يصحبها شعور بالدونية والانحطاط، خاصة عندما يلجأ الكاتب إلى بلد متطور جدا عن بلده الأم، حينها فقط يشعر الكاتب بشيء من الانفصال الذاتي عن نفسه ومجتمعه، فيقرر المكوث في ذلك الحيز المكاني أو العودة عنه إلى وطنه، وهنا تتشكل المقارنات الحادة بين عالمين متقابلين، وتظهر بشكل واضح في الروايات التي تتخذ منها رحليا في كشف أساليب الاعتراب والتشتت التي يعانيها البطل أثناء تجواله بين مختلف المدن والمحطات، إذ تتناول هذه الروايات الجامعة بين الرحلة والاعتراب تجارب الشخصيات وصراعاتهم الداخلية، وكيفية تعاملهم مع التحديات والتغيرات التي تطرأ على حياتهم خلال هذه الرحلات والتجارب الجديدة.

لكن مع تغير الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، أخذ مفهوم الرحلة يتحول تدريجياً إلى تجربة هجرة للعديد من الأفراد والمجتمعات. وقد زادت حدة هذه الظاهرة مع التقدم التكنولوجي وتوسع رقعة العولمة نتيجة لعدة عوامل وتأثيرات ترتبط بالتطور التكنولوجي والتوسع في استخدام الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي. وقد أضحت هذه الظاهرة مادة أدبية هامة تعكس تجارب الفرد ومعاناته، وتتناول مواضيع متعلقة بالهوية، والانتماء، والاندماج، والتمييز، والتغيير الثقافي، والهجرة القسرية، واللجوء، إلى غيرها من المواضيع التي تعكس تحولات المجتمعات والمناطق المعاصرة في عصر العولمة، وتكون مادة دسمة لإثارة الوعي بقضايا الهجرة والاندماج والهوية في عالمنا المعاصر.

إنّ تغير مفهوم الرحلة عبر الزمن يعكس التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي شهدتها المجتمعات عبر مختلف المحطات الزمنية، إذ اعتبرت الرحلة في العصور القديمة تجربة استكشافية أو تعبيراً عن الفضول الثقافي، حيث كان المسافرون يخوضون رحلاتهم لاستكشاف المناظر الطبيعية، والتعرف على ثقافات وشعوب جديدة، إضافة إلى التجارة، والتبادل الثقافي. ولكن مع تطور البشرية وتعميق العلاقات الاجتماعية والسياسية، بدأت تتغير دوافع الرحلة ومعانيها، إذ تشكلت ظاهرة الهجرة كنتيجة للحروب والنزاعات، والظروف الاقتصادية الصعبة، واضطهاد الأقليات، والبحث عن حياة أفضل، بحيث تحول مفهوم الرحلة تدريجياً إلى تجربة هروب أو بحث عن الأمان، حيث يترك المهاجرون بلادهم بحثاً عن فرص جديدة أو للنجاة من الأوضاع الصعبة التي يعاني منها المجتمع في البلدان المتخلفة.

ثانياً: الرحلة والاعتراب: تجربة البحث عن الهوية في رواية "عازف الغيوم":

1. الاعتراب: دراسة في المصادر الفكرية والتجارب الواقعية والنتائج المترتبة:

الاعتراب ظاهرة وجدانية قديمة، ترافقت مع الإنسان عبر العصور، فهي تصاحبه خلال رحلته المستمرة بين الثقافات والمجتمعات المختلفة، بحثاً عن حياة مستقرة بعيدة عن الحروب والغزوات والآفات النفسية التي كثيراً ما عانى منها الإنسان القديم، وهو نتاج شعور الإنسان «بالضياع والإحباط والوحدة والعجز إزاء التغيرات التي تواجهه في حياته وتقف عائقاً أمام تحقيق طموحاته وآماله الذاتية أو لشعوره بعدم قدرته على العيش في مجتمع لا يستطيع مواكبة تفكيره وثقافته»¹³، وكثيراً ما تكون الهجرة أبرز نتائج ذلك الشعور المسيطر على الإنسان في مختلف مراحل حياته، دون أن يدري أنها قد تزيد من حدة ذلك الشعور ووطأته، فالتقاء منظومتين ثقافيتين مختلفتين في نقاط عديدة كاللغة والدين ومنطق التفكير قد يؤدي بداية الأمر إلى الانبهار والدهشة، ثم ما يلبث أن يتحول إلى اعتراب حاد كون المرء لا ينتمي لذلك المجتمع المختلف عنه.

إذن فالاعتراب وفق هذه التوليفة «وصف لحال الإنسان الواقع تحت هيمنة سلطة ما تدفعه إلى واقع مغاير لواقعه وحقيقته»¹⁴، فيصبح ذاتاً نكرة لا تنتمي لشيء، نتيجة وطأة ذلك الاستلاب القهري من طرف المجتمع والسلطة والعائلة، وحتى الآلة التي حولت الإنسان إلى مادة صناعية، أو شيء يمكن الاستغناء عنه،

فيأتي مصطلح الاعتراب تبعاً لذلك «للتعبير عما يستشعره الإنسان الحديث من غربة كونية، وما يحسه من زيف الحياة وعدمها، وما يلحظه على علاقات الأفراد بعضهم ببعض من سطحية واستغلال ولا إنسانية»¹⁵، وهذا كله نتاج ما توصل إليه العقل الغربي في بداية نهضته ونشاطه، إذ أصبح العالم حقل تجارب سياسي، وتحول الإنسان إلى طعم لتلك التجارب، وأنتزعت قيمته ومكانته، فغدا رسماً دون وسم أو منطق. وعند النظر إلى مصادر الاعتراب ونتائجه على الإنسان والمجتمع، يمكن تقسيم تلك العملية إلى ثلاث مراحل متكاملة ومتصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً وعضوياً، كما يتبين في التقسيم التالي:¹⁶

أ. المرحلة الأولى: مصادر الاعتراب:

- التجزئة والتفتت الاجتماعي، وانهيار القيم الإنسانية مثل الاحترام والتعاطف والعدالة.
 - هيمنة الدولة على المجتمع، والنزوع نحو تشييء العالم والغاء التعددية الثقافية، مما يسهم في خلق مشاكل متعلقة بالهوية والتمييز وعدم الانسجام داخل المجتمع.
 - تسلط الأنظمة الاجتماعية القسرية: النظام الأبوي، وهيمنة المؤسسات الدينية، والتربية الاستظهارية، والتي قد تؤدي إلى انتهاك حقوق الإنسان وقمع الحريات الأساسية مثل حرية التعبير وحرية التجمع وحقوق الفرد في المشاركة السياسية.
 - الاستغلال الطبقي والظلم والحرمان والقهر ووجود فجوات عميقة بين الضعفاء والفقراء من ناحية، والأقوياء والأغنياء من ناحية أخرى.
 - التبعية والسيطرة الخارجية على الموارد العربية بالتحالف مع الحكام والطبقات المهيمنة.
 - طقوسية الماضوية وثباتها: الصراع بين القديم والجديد، وهذا من شأنه أن يعرقل التطور ويمنع التكيف مع التغيرات الاجتماعية والثقافية الجديدة.
- ب. المرحلة الثانية: تجربة اغتراب الإنسان على صعيد الوعي الذاتي وفي علاقته بالمجتمع ومؤسساته والآخر:
- على صعيد الوعي الذاتي: عدم التوافق الداخلي، والانعزال النفسي وتشتت الهوية.
 - في العلاقة بالمجتمع: العزلة الاجتماعية وعدم المشاركة في الأنشطة المجتمعية أو السياسية بسبب شعوره بأن صوته غير مسموع أو أن مجهوده غير مقدرة، إضافة إلى شعوره بالتهميش والاستبعاد.
 - في العلاقة بالمؤسسات: الانفصال الوظيفي وانعدام الثقة بالمؤسسات لشعوره بأن هذه الأخيرة تتعامل معه كرقم أو حالة وليس كإنسان كامل، مما يعمق إحساسه بالعزلة وعدم التقدير.
 - في العلاقة بالآخر: التبعاد في العلاقات الشخصية والانطواء العاطفي وفقدان الثقة للشك الدائم في نوايا الآخرين أو في مصداقية علاقاتهم، مما يؤدي إلى صعوبات في بناء علاقات مستدامة.

ت. المرحلة الثالثة: نتائج الاعتراب السلوكية بدائل الانسحاب أو العزلة، والخضوع والتمرد أو الثورة في سبيل تغيير الواقع المعاش:

- الانعكاسات النفسية: يمكن أن يؤدي الاعتراب إلى مشاكل نفسية خطيرة كالاكتئاب والقلق وفقدان الهوية.

- التأثير على الإنتاجية: في سياق العمل يمكن أن يؤدي الاعتراب إلى تراجع الإنتاجية والابتكار، حيث يشعر الموظفون بعدم الانتماء وعدم الحافز للعمل بجد.

- الاحتجاج الجماعي: ينخرط الفرد في حركات احتجاجية أو جماعية تسعى لتغيير الوضع الراهن. هذا يمكن أن يشمل الإضرابات، التظاهرات، أو حركات المقاطعة.

هذا وقد كان الاعتراب (مصادره/ تجاربه/ نتائجه) مادة دسمة لأصحاب الرواية والقصة، لما يشكله من قضايا متتابعة ومتداخلة، تفضح الكثير من الأنساق الثقافية المضمرّة، والكامنة في مواضع لغوية تعبر عن الوحدة والغربة والهوية المشتتة، وقد كان لزاما على الكتاب فضح هذه الأيقونة العصرية وتوضيح أثرها على المجتمع، وتفكيك العلاقة بين الرحلة الاضطرارية (الهجرة غير الشرعية) والاعتراب بجميع أشكاله ومستوياته (قبل الرحلة وبعدها)، والتي من خلاله يشعر البطل بمقدار التفكك الاجتماعي الذي توصل إليه العالم خاصة مع الثورة الصناعية وسيطرة الآلة على جميع مكامن الاقتصاد والسياسة، وتلاشي مختلف القيم الإنسانية وتقسيم العالم إلى شقّ ضعيف مشتمت يحكمه الجنس والرذيلة، وشقّ قوي يتحكم فيه الجبروت العقلي والمعرفي، فاحتدم على ذلك صراع بين الكتلتين، بحيث أصبح السبب الرئيسي في تبلور مشاعر الاعتراب والتفكير في الهجرة للبحث عن حياة أفضل وأجمل بالرغم من الجدل القائم بين الأنا الشرقي والآخر الغربي. وبناء على هذا الجدل تم إنشاء هيكل رواية "عازف الغيوم" لعلي بدر، وسنحاول في الصفحات اللاحقة تحليل هذه الرواية لإدراك جالية الارتباط الدلالي بين مصطلحات "الرحلة" و"الاعتراب" و"التصادم الحضاري".

2. الاعتراب المزدوج: التحليل السوسيوثقافي لتجربة الاعتراب قبل الرحلة وبعدها:

الرحلة القسرية هي عملية تنقل أفراد أو جماعات من مكان ألفتهم إلى مكان الغربة، نتيجة دوافع وأسباب مختلفة كالهروب من الحروب الأهلية أو الاضطرابات السياسية، أو ببساطة لاكتشاف ثقافات وأساليب عيش جديدة. ويمثل هذا النوع من الرحلات موضوعًا مهمًا في الرواية العربية المعاصرة، حيث يُسلط الضوء على تجارب الأفراد والشعوب المهاجرة بحثًا عن حياة أفضل وأكثر انسيابية مع وضع الإنسان الحالي. وتتنوع مظاهر هذه الرحلة في الرواية العربية المعاصرة بناءً على الزمان والمكان والسياق الاجتماعي والسياسي الذي يتغيا الكاتب فضحه وتفكيكه من خلال تشكيل علائق موضوعية، تتناول بالتحليل فكرة

التعلق الجمالي بين ثيمات الرحلة والاعتراب والصدمة الحضارية الناتجة عن كسر أفق توقع البطل المهاجر في الدولة التي اختارها ملجأ له بدلا عن وطنه الأم.

وقد عكس هذا الموضوع في رواية "عازف الغيوم" مختلف التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي شهدتها المجتمعات العربية، إضافة إلى تقديمه نوعاً من الانعكاس على تجارب الشخصيات الروائية في مواجهة واستقبال التحديات والمشاكل التي ترافق الرحلة وتأثيرها على الفرد والمجتمع، وقد تجلّى ذلك من خلال تسليط الضوء على الأزمات النفسية التي خلفها التحول السياسي في دولة العراق بعد الحرب الأمريكية وإسقاط نظام صدام حسين، إذ شهد العراق صعوداً للميليشيات والجماعات المسلحة والتنظيمات الإسلامية المتشددة، مما أدى إلى تفاقم الصراعات الداخلية والأمنية في البلاد، وزاد من حدة الصراع بين الإنسان ومعتقداته الدينية: «لو كان المسلّحون، أو غيرهم، قد طلبوا منه بناء ختمارة، سيقدم لهم كل ما له من مال من دون ندم. أما جامع؛ فالأمر بحاجة إلى تفكير. ذلك أن جميع الإرهابيين قد خرجوا من الجامع، لم يخرج إرهابي واحد، ليفجر نفسه من ختمارة»¹⁷، ويمكن تحليل هذا القول في سياق أزمة العراق السياسية، حيث يشير إلى التوترات بين مختلف الفصائل والجماعات الدينية المتشددة، والتي قد تصل إلى مستويات عالية من العنف والتطرف، مما يبلور فكرة الهجرة كحل مغرٍ للتخلص من شعور الاعتراب الذي أخذ يتطور تدريجياً مع تطور الحبكة الروائية، حيث أضحت الهجرة هنا خياراً مناسباً للكثيرين في ظل الظروف الصعبة وعدم الاستقرار في البلاد.

بهذا الترتيب المنطقي استمرّ التعبير عن موضوع الرحلة القسرية بأسلوب أكثر عاطفية، حينما عمد الكاتب إلى التلاعب بالمعجم الدلالي المتعلق بهذا اللفظ، واستخدام أساليب تعبيرية مثيرة، تحيل إلى التوجه المثالي الذي دافعت عنه الشخصيات الروائية طيلة صفحات الرواية: «لا أحد يحل هذه الإشكالية سوى الهروب إلى "الحياة الكائنة في ما وراء البحار" ... التعبير الذي كان يلدّ له استخدامه مكان تعبير: "الهجرة"، "اللجوء"، "المنفى"»¹⁸، ويقصد بجملة: "الحياة الكائنة فيما وراء البحار" الفردوس الأوروبي الذي يرتبط عادة بفكرة الحرية وتعدد الفرص والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي الذي يقدمه العيش في دول أوروبا المتقدمة، إذ تمثل هذه الدول ملاذاً آمناً من الصراعات أو القيود السياسية أو المشاعر السلبية التي يولدها الشعور بالاعتراب الناقص عن المجتمع والعائلة، وبعد ذلك المفهوم المثالي للفردوس الأوروبي هدفا يسعى الكثيرون لتحقيقه من خلال الهجرة أو اللجوء، لكن الواقع يكشف عن تعقيدات وتحديات قد تجعل هذا المفهوم غير قابل للتحقق بالنسبة للجميع؛ إذ يعد ارتفاع التكاليف المعيشية في الدول الأوروبية تحدياً رئيسياً يواجه المهاجرين، وهو أمر يمكن أن يعيق جهودهم في بناء حياة مستقرة هناك، بالإضافة إلى ذلك قد يواجه المهاجرون تحديات أمنية تتعلق بالحصول على إقامة قانونية، ولا يمكن كذلك تجاهل التحديات الاجتماعية مثل التطرف والعنف

العنصري الذي يمكن أن يؤثر على السلامة العامة، وبالتالي فمصطلح "الفردوس الأوروبي" أو "الحياة الكائنة في ما وراء البحار" قد يكون مجرد حلم بعيد المنال للعديد من الأشخاص الذي يسعون للهجرة إلى أوروبا. وقد أحسن الكاتب التعبير عن ذلك، من خلال التركيز على تصوير المشاعر المضطربة التي عاشها البطل "نبيل" في بلجيكا، البلد الذي رآه ملجأ آمناً في ظل الظروف القاسية التي شهدتها بلاده، ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ سرعان ما بدأت مشاعر الاعتراب تتولد؛ حينما تعرّض البطل لتجارب وتحديات مختلفة بما في ذلك فقدان الانتماء ومحاولة البحث عن هوية جديدة، مما أدى إلى شعوره بالوحدة والعزلة، ويرجع هذا بالأساس إلى عدم اندماجه مع المجتمع الجديد، أو صعوبة فهمه للثقافة المختلفة: «وجه نبيل .. وجه مهاجر، لا تحطئه العين، هو وحده الذي يعتقد أن الإيمان هو الذي يوحد الناس لا ميثولوجيا الأعراق، ولا ميثافيزيقا الألوان ولا الملامح»¹⁹، فنيل -الشخصية المهيمنة في الرواية- يرفض الاعتقادات التي تفرق الناس بسبب العوامل السطحية المتمثلة في العرق واللون واللامح، إذ يؤمن بقوة التواصل والتعاون بين الأفراد بغض النظر عن الاختلافات الظاهرية، لكن التمييز العنصري في الدول الأوروبية يكسر هذا الأفق ويخلق نوعاً من الاعتراب الذي يؤدي إلى الشعور بالوحدة والانفصال الدائري عن الوطن الجديد.

وتجاوبا مع ذلك يستعرض الكاتب مفارقة دلالية جمعت بين مختلف المشاعر المتشككة أثناء التصادم الأول بين الثقافة الشرقية ونظيرتها الغربية، وبين ذلك في كيفية تأثير الاعتراب على نمط الحياة الجديد، وتجلى ذلك في الرواية من خلال انصهار الشخصية البطل مع الأجواء الجديدة التي أنشأتها ظروف الاختلاف الجذري بين الشرق المتخلف والغرب المتطور، مما أشعرته بالانتماء السلبي لهذا المجتمع المنحرف، فأخذ يتذكر لأبناء جلدته من المهاجرين الذين استجلبوا معهم كل معاني التشدد والتطرف الديني: «إنّ وجود المهاجرين في أوروبا يُعدّ صوتاً نشازاً، إذن؛ يجب عليهم الرحيل»²⁰، وهذا القول يعبر عن وجهة نظر متطرفة، تعتبر المهاجرين في أوروبا عاملاً مزججاً أو غير مرغوب فيه، لأنّ وجودهم يثير بعض التحديات والتغيرات في الهوية الثقافية والاقتصادية للدول المضيفة، ولذلك عدّهم نبيل صوتاً نشازاً يؤثر على جالية الموسيقى الأوروبية، وبالتالي عليهم الرحيل، وهذا يعبر عن مدى التقمص الهوياتي الذي شعر به الشخص القادم من خلفية أمنية مضطربة وأفكار دينية متطرفة، وآمن بأنه خلّق في المكان الخطأ، وأنّ أوروبا هي بيئته الطبيعية، التي يمكن فيها أن يتأقلم مع طبيعة المجتمع العاشق للحياة والفن والموسيقى، ولكن سرعان ما تغيرت معتقداته في النهاية، وظهر ذلك في الخاتمة المأساوية التي جعلت البطل يحيد عن رأيه ويرى في المهاجرين طوق نجاة له من التطرف اليساري.

إنّ الروايات الجامعة بين موضوع الرحلة والاعتراب، غالباً ما تثير الأدب بتجارب إنسانية مؤثرة تلامس قلوب القراء وتفتح نوافذهم على عوالم وثقافات مختلفة، كما تزيد من فهم أنواع الاعتراب وتجلياته

المتعددة، التي أحسن الكاتب استظهارها من خلال توضيح العلاقة العاطفية المتوترة بين البطل ووطنه أولاً، ثم البطل والبلد المضيف ثانياً، ويمكن إدراج تلك الأنواع في النقاط التالية:

أ. الاعتراب المكاني:

يحدث عندما يترك الشخص بلده أو مكان إقامته الأصلي ويعيش في مكان آخر بعيد عنه، مما يؤدي إلى فصله عن بيئته الطبيعية وثقافته، وقد يشير إلى الرغبة الملحة في مغادرة الوطن نتيجة الشعور بالانقسام القهري بين الإنسان وأحلامه، لفقدان الوطن خاصية احتواء الشعب وتشجيعه: «من زمان، فكّر بالهروب إلى أوروبا، ولكن؛ لم يكن الوقت قد حان فعلاً، أما الآن؛ فقد حان فعلاً، وها هو -الآن- جنب المهرب الذي سيقوده إلى المكان المحلوم، إلى الحياة فيما وراء البحار»²¹، هذا القول يعكس حالة من اليأس والإحباط اتجاه الظروف الراهنة في الوطن الأم، حيث يرى بطل الرواية أن الهرب إلى أوروبا قد أصبح الحل الوحيد أو الأمثل. ومع ذلك يجب أن يناقش أيضاً الجوانب الأخرى لهذا القرار، بما في ذلك المخاطر والتحديات التي قد تواجهه أثناء هجرته غير الشرعية، بالإضافة إلى التكاليف الباهظة والعواقب القانونية المحتملة في الوجهة المقصودة: «حين اختار نبيل الرحيل إلى أوروبا، اختار لنفسه أسهل الطرق مع أنه الأكثر ارتفاعاً في الأسعار (...) لذلك أخذ نصيحة من أحد أقاربه، هو أن يذهب بشاحنة واحدة، تأخذه من الحدود التركية، وتلقي به فوراً في بلجيكا، يعني لا حدود، ولا شرطة، ولا خفر سواحل، ولا انقلاب الزورق المطاطي، ولا مآسي ولا أشياء أخرى»²²، وقد أفصح الكاتب من خلال هذا التوظيف إلى خطر الاستغلال من قبل المهربين الذين قد يطلبون مبالغ مالية ضخمة مقابل تهريبهم إلى وجهاتهم المقصودة. إضافة إلى خطر تعرضهم للاحتجاز أو الترحيل عند وصولهم إلى محطة الأمان في اعتقادهم، مما يؤدي إلى ضياع جهودهم وأموالهم وإحباط آمالهم في حياة أفضل.

ب. الاعتراب الثقافي:

يتشكل هذا النوع من الاعتراب عندما يجد المرء نفسه في بيئة ثقافية غير مألوفة له، بحيث تصبح لغته وتقاليد وقيمه شاذة أو متطرفة في نظر البعض، وغالباً ما يعاني من الصعوبة في التكيف مع المحيط الذي يحطم أحلامه وطموحاته في تكوين مستقبل زاهر: «أن تكون عازفاً لموسيقى كلاسيكية في الشرق الأوسط محنة ليست سهلة أبداً. قال نبيل مرة لأستاذته في الموسيقى: إنه ليس شيئاً صعباً، وحسب، بل هو تراجيدي وكوميدي وفظيع، مثلما أن تأتي بالضبط بجيوان يعيش طوال حياته في القطب، وتنقله إلى منطقة، تصل حرارتها في الصيف إلى الأربعين»²³ وقد عكس هذا القول مقدار الاعتراب الذي يحس به المثقف الشرقي نتيجة صعوبة التأقلم مع توقعات المجتمع وتحديات الساحة الموسيقية المحلية في الشرق العربي، مما أدى إلى الشعور بالعزلة والغربة، خاصة بعد الاعتداءات الجسدية التي أدت في النهاية إلى كسر آلة العزف، وهذا عرض البطل لعدة تحديات ثقافية واجتماعية في بلاده العراق، مما أدى به إلى خوض غمار التجربة وترك الوطن للظفر بحياة أنسب وأجمل في بلاد الغربة.

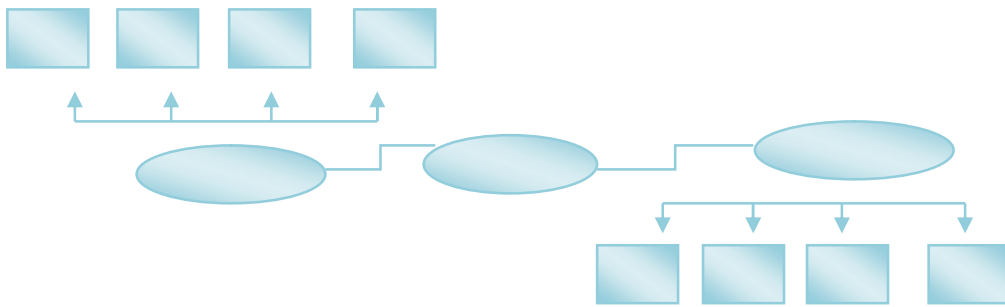
أما عن تجليات الاعتراب الثقافي في الدول الغربية، فقد برزت واضحة في التمييز العنصري بين المهاجرين والسكان الأصليين في العديد من الجوانب الحياتية، كالعليم والعمل ومكان الإقامة، حيث أنشأت الحكومة الغربية مقرات وأحياء هامشية لاحتواء المهاجرين ضمن حيز مكاني واحد، وذلك لتخفيف الضغط على سوق الإسكان الرئيسي، والحفاظ على النظافة العامة في المناطق الحضرية، وهذا يرجع إلى المفاهيم الخاطئة التي تروجها وسائل الإعلام والثقافة الشعبية وحتى هذه الرواية التي صورت -في جزئية منها- المناطق الشرقية كأماكن متسخة وغير صحية، مما يعزز الفكرة بأن ثقافة الوسخ هي جزء من الثقافة الشرقية: «لم يكن نبيل مصدقا أول الأمر. فما إن هبط من السيارة حتى رأى بمواجهته ساحة مظلمة، قدرة، لا تتميز عن أي ساحة في العالم الثالث. هبط ببطء، وهو يحترق حقيقته وراءه. نظر إلى المكان حائرا، غير مصدق، تمنع في المشهد، وهو يفغر فمه. تلقت يمينًا وشمالًا، وتساءل في نفسه: هل يريد أن يخدعني هذا المهترء؟»²⁴، ولكن هذه الخطوة قد تؤدي إلى تعزيز التمييز الاجتماعي والثقافي، واستبعاد الفئات المهاجرة وتجاهل احتياجاتهم وهويتهم الثقافية.

ت. الاعتراب الاجتماعي:

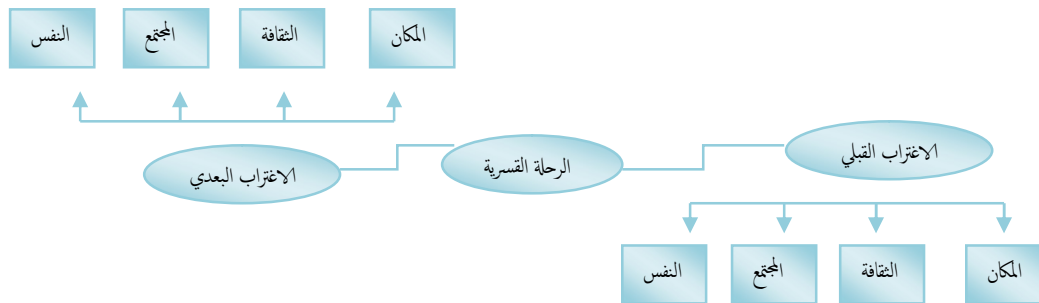
يحدث عندما يفقد الفرد شبكته الاجتماعية المعتادة، سواء بسبب الانتقال إلى مكان جديد أو بسبب تغيرات في العلاقات الاجتماعية، وتلمس ذلك في علاقة البطل المتوترة بعائلته وأصدقائه ومجموعته، إذ كانت كلها تصنعات و«لم تكن لها أية صلة بالحقيقة. كانت تمثيلاً أخرق في مسرحية بألسة. كانت تمثيلاً لنص ثقيل، بلا أصداء، يُدار في صمت كثيف وأسود. بل كانت كلاماً فارغاً في ظلمة خرساء لمسرح فارغ»²⁵، ويمكن ربط هذا الاقتباس بظاهرة الاعتراب من خلال تجربة الشخصية وشعورها بعدم الانتماء الحقيقي لأي مجموعة أو طبقة اجتماعية محددة نتيجة العديد من العوامل مثل الفروقات الاجتماعية والتفاوت في القيم والمعتقدات، وبالتالي يشعر البطل بالعزلة والغربة المستمرة وهو ما يؤثر على حياته، مما يؤدي به إلى التمثيل والاختباء وسط أفئدة التصنع التي تحيط به بلا انقطاع.

ث. الاعتراب النفسي:

يحدث هذا النوع من الاعتراب عندما يشعر الفرد بالفصل أو الانفصال العاطفي عن نفسه أو عن هويته الحقيقية، وقد يكون نتيجة لصدمة نفسية أو تجارب مؤلمة كانهدام الأمن وتسلط القوى المتشددة: «لم يعد له أصدقاء. لم تعد هناك بارات، كما كانت. اختفت البيرة. ما عاد له أي مستقبل كعازف تشيللو في هذا البلد، بل حتى علاقته بأبويه شعر أنها لم تكن سوى علاقات شكلية، بلا جوهر، بلا حياة، بلا محتوى، بلا عاطفة، لم تكن سوى طقوس»²⁶، إن الفكرة التي يطرحها هذا القول تعكس واقعا مؤلما تعيشه الشخصية، حيث يشير إلى عزلتها الاجتماعية وفقدانها لروابط الصداقة والمشاركة في الأنشطة الاجتماعية، مما يخلق شعورا بالفقدان والفراغ، كما يعبر عن عدم اليقين بالمستقبل وعدم وجود هدف محدد يمكن السعي لتحقيقه، مما يجعله شبيها بعازف التشيللو الذي لم يجد له مكانا في بيئته، ومن خلال وصف العلاقة بين البطل ووالديه بأنها



علاقات سطحية خالية من العواطف والمحتوى، يظهر الشعور بالاعتراب وعدم الانتماء حتى في الأماكن الأكثر تألقاً وحميمية؛ إذ يعكس الشعور بالتبعية والعزلة الروحية، بحيث يعيش الشخص دوراً ميكانيكياً دون أن يشعر بالاتصال الحقيقي والعميق مع الآخرين أو مع نفسه. ويمكن تحديد العلاقة بين الرحلة والاعتراب بنوعيه في المخطط التالي:



ثالثاً: الرواية والتصادم الحضاري؛ سردية الرحلة والاعتراب الثقافي في رواية "غازف الغيوم":

1. صراع الثقافات وتأثيراته على الشخصية الروائية؛ تحليل لعوامل الصدمة الحضارية في الرواية:

التصادم الحضاري مصطلح شائك ومثير، يشير في عمومهِ إلى الصراع أو التنافس بين مجموعات مختلفة من الناس أو الثقافات أو الحضارات. ويمكن أن يتسبب هذا الصراع في توترات وصدّامات بين هذه المجموعات، وقد يظهر في العديد من المجالات مثل السياسة والاقتصاد والثقافة والدين، كما يمكن أن تزداد حدته نتيجة عوامل متعددة، يمكن إدراجها في النقاط التالية:

■ يمكن أن تؤدي الاختلافات في القيم والمعتقدات والعادات والتقاليد بين الثقافات والديانات إلى الصراع، ونجد ذلك مثلاً في الرواية من خلال التوتر الحاصل بين شخصيات الرواية نتيجة الخلفية الثقافية المختلفة التي ركبها الكاتب في كل شخصية على حدة، مع أخذه بعين الاعتبار العوامل السياسية والاجتماعية والفوارق الثقافية بين البيئة الشرقية والبيئة الغربية: «أنا في بلدي، أصرخ مثلاً أشياء، ومثلما أريد، ومن لا يعجبه، فليأخذ بناته إلى بلده، وهناك لن يسمعن سوى صوت الأذان، أما هنا، فأنا أفعل ما أشاء»²⁷، هذا القول يعبر عن رغبة الأنثى الغربية في ممارسة حريتها الشخصية داخل بلدها دون قيود أو تدخلات خارجية، إذ يحيل إلى الشعور بالانتماء والولاء للثقافة

والقيم الخاصة بهذا البلد، مع استعدادها لقبول الآخرين بشرط احترام حريتها وثقافتها، وهذا يصور مقدار التوتر الحاصل بين السكان الأصليين والمهاجرين، الذين عدّهم الكاتب صوتا نشازا في الموسيقى الأوروبية، ومع ذلك يمكن أن يؤدي هذا النوع من الفكر إلى تشدد ثقافي وتفاقم الانقسامات الاجتماعية، ويمكن أن يُفقد المرء الفهم الجميل للتنوع الثقافي وضرورة التعايش المشترك والتفاهم بين الثقافات المختلفة، مما يسهم في تصاعد الصراعات الحضارية.

■ قد يؤدي الاختلاف بين الهويات الوطنية والقومية إلى زيادة حدة التوتر بين المجتمعات المختلفة، خاصة عندما تصبح مصدرا للتمييز والتفرقة، وقد حصل هذا التوتر في الرواية، عندما أراد الكاتب التوغل في كوامن الشخصيات، لإدراك المشاعر الأساسية المحركة لذلك التوتر: «وجه نبيل .. وجه مهاجر، لا تحطئه العين، هو وحده الذي يعتقد أن الإيمان هو الذي يوحد الناس لا ميثولوجيا الأعراق، ولا ميثافيزيقا الألوان ولا الملامح»²⁸، وهنا يمكن الاختلاف بين النظرة الشرقية التي تحاول إلغاء كل الحواجز العرقية واللونية والدينية، في مقابل النظرة الغربية الداعية إلى الوحدة الثقافية والمركزية الأوروبية وسلطة اللون الأبيض على ما سواه، فهذه الجدلية لا يمكن تغييرها وستظل تتأرجح بين الثقافتين مادامت هناك عقول متحجرة تدعو إلى إلغاء الآخر ومسح هويته الثقافية.

■ يمكن أن يؤدي التفاوت الكبير بين الطبقات الاجتماعية إلى التوترات النفسية والاقتصادية، وقد يتعدى ذلك إلى صراعات حضارية، وقد عبّر الكاتب عن ذلك بمشهد قد يكون مستهلكا أو معتادا عليه من طرف المهاجرين الذين يحاولون التمسك بالأثني الغربية لقضاء حوائجهم أو تلبية رغبتهم الجنسية التي كُبتت قهرا في الثقافة الشرقية: «لقد أحسّست فاني لحظتها بالذهول والرعب، من مشاعر اللامبالاة لدى الذين كانوا في البار، لم يمدّ أحد يده؛ لينقذه، وقد سمعت همسا من بعيد: اتركه إنه مجرد لاجئ، استولى على محفظة نقود صديقه، وأخذ يبددها»²⁹، يمكن أن يظهر هذا القول تحديات مواجهة اللاجئين والتمييز ضدهم، عن طريق المعاملة غير الإنسانية أو النظر إليهم على أنهم غرباء يستحقون الاستبعاد والمغادرة.

هذه بعض الأسباب التي قد تخلق الاضطراب الحضاري بين الشعوب، وتزيد من حدة التوتر بين مختلف الطبقات الاجتماعية، وتتطلب مكافحة تلك الصراعات جهودا كبيرة تشمل التوعية والتسامح والتفاهم المتبادل بين الثقافات المختلفة، بالإضافة إلى تعزيز العدالة الاجتماعية وتشجيع التعاون الدولي وحل النزاعات بشكل سلمي، مما يخفف من وطأة تلك الجدلية القائمة بين الأنا والآخر، والتي تعكس العلاقات المعقدة والتبادلية بين الفرد والمجتمع، وتؤثر في شكل تصوراتنا عن الذات والعالم من حولنا، مما يخلق نوعا من الصدمة الحضارية، التي تظهر بصورتين، صورة يغلفها الانهار والدهشة، وصورة تحمل المعنى المعاكس، والذي يُقصد به الخذلان والصدمة نتيجة كسر أفق توقع اللاجئ أو المهاجر في البلد المضيف.

2. البحث عن الأمل في ظل الحنية الحضارية، تمثيلات الصراع والتحدي في رواية "عازف الغيوم":

لقد حاول الكاتب تجسيد الصورة الثانية من تلك العلاقة، من خلال تصوير خيبة الأمل التي تعرّض لها البطل عند أول مشهد له بعد خروجه من سيارة المهرب: «لم يكن نبيل مصدّقاً أول الأمر، فما إن هبط من السيارة حتى رأى ساحة مظلمة قدرة، لا تتميز عن أية ساحة في العالم الثالث. هبط ببطء، وهو يحجّر حقيقته وراءه، نظر إلى المكان، حائراً، غير مصدّق، تمنّ في المشهد، وهو يفغر فمه، تلقت يميناً وشالاً، وتساءل في نفسه: هل يريد أن يخدعني هذا المهرب»³⁰، يعكس هذا القول تلك الفوارق في البنية التحتية ومستوى النظافة والتنظيم بين البلدين، كما يظهر استغراب نبيل وعدم تصديقه لما رآه، مما يشير إلى عدم توقّعه لمثل هذا المشهد في بلد متطور مثل الدول الأوروبية، نظراً لاعتقاده المسبق عن تلك البلدان بأنها تولي اهتماماً كبيراً للحفاظ على البيئة والنظافة العامة من خلال التشريعات والتوعية، ولكن ذلك الاعتقاد سرعان من تبدّد، لتظهر الصورة الحقيقية لأوروبا، وتعدّ تلك الخطوة أول الطريق لإدراك الخلفية المظلمة التي أغفلتها وسائل الإعلام واختفت عن عيون المهاجرين واللاجئين.

ثم يكشف الكاتب عن النظرة القبلية التي سيطرت على ذهن الشخصية قبل هجرته إلى دولة أوروبا، ويدخل ذلك في ثقافة ما قبل الرحلة الفعلية وهي الثقافة الموجهة، والتي غالباً ما «تتحوّل بمجموعة من الانطباعات المرفودة بصور وأحلام وتخيلات، أو بمعارف سماعية أو مستقاة من رحلات سابقة تخضع للتحويل والتأويل»³¹ وقد بيّن الروائي ذلك في قوله: «فكرة نبيل عن أوروبا مغايرة تماماً عما يراها أمامه، فكرته عن الحياة في أوروبا هي مثالية على نحو مبالغ به كثيراً، هي السكن في أبنية، حياة لو كس، رفاهية من نوع خمس نجوم، لمعان أرضية، عطور تنبعث في كل مكان، وليس هذه الخبرة التي لا تعدو أن تكون شقة في بغداد، بل حتى شقته في بغداد أفضل منها»³²، يكتشف نبيل من خلال هذا القول أنّ الأمور ليست دائماً كما يتصور، وأنّ هناك فروقات كبيرة بين الأفكار المثالية والواقع الفعلي، حيث يمكن أن توجد مناطق في أوروبا تفوق توقعاته بكثير، ولكن يمكن أن تكون هناك أيضاً مناطق تختلف عن ذلك تماماً، والتي يمكن إدراجها ضمن مناطق الظل كأحياء المهاجرين المنتشرة في مناطق بعينها في دولة أوروبا.

تلك الصدمة الحضارية ولدت مشاعر الاعتراب في نفس المهاجر، الذي وجد نفسه في عالم يختلف تماماً عما تصوره في مخيلته، مما أشعره ذلك بالحزن وعدم الأمان، كون المدينة الفاضلة لم يعد لها وجود في نظره: «ولكن؛ في أحيان أخرى، يشعر بانقباض أو ألم في القلب، ذلك أن المدينة الفاضلة، المدينة التي تعيش على المساواة، والفضائل، والموسيقى لا تتحقق حتى هنا في أوروبا»³³، وهذا ما يعكس الحنية والإحباط في نفس البطل بسبب عدم تحقّق الأماني والتطلّعات في المجتمعات الحالية، حيث يعكس الشعور بالاعتراب والحنية من عدم القدرة على تحقيق التطلّعات الأخلاقية والثقافية في الواقع العملي، مما يشير إلى الفجوة الكبيرة بين الواقع

والطموحات الإنسانية في هذا العالم المادي، الذي يهتم بالآلة أكثر من اهتمامه بقدرة الإنسان. ويمكن تلخيص العلاقة الجامعة بين الصدمة الحضارية والاعتراب والرحلة في المخطط التالي:



خاتمة:

في ختام هذا البحث نجد أن التداخل الدلالي بين الرحلة والاعتراب والصدمة الحضارية يمثل محورا أساسيا يعكس تجارب الشخصيات وتحولاتها، إذ تظهر الهجرة كرحلة شخصية تفتح آفاقا جديدة، بينما يمثل الاعتراب في فقدان الانتماء والتهافت نحو التكيف مع الواقع الجديد، نتيجة تباين الثقافة السابقة عن الثقافة الجديدة، وتظهر الصدمة الحضارية في الصراع الداخلي والتعارضات الثقافية التي تواجهها الشخصيات الروائية. وتأكيدا على ذلك تبرز الرواية أهمية فهم أبعاد هذا التداخل الدلالي، وتأثيره على الفرد والمجتمع، فمن خلال تجارب الشخصيات داخل رواية "عازف الغيوم" ندرك أن التحولات الثقافية والاجتماعية لا تأتي بسهولة، بل تتطلب تكيفا وتبني مفاهيم جديدة وتغييرات في الهوية، لذا يمكن أن يكون التداخل الدلالي بين الرحلة والاعتراب والصدمة الحضارية في الرواية نقطة انطلاق لفهم أعمق لتحديات وفرص المهاجرين والمغتربين في عالم متغير باستمرار. ويمكن عرض هذه النتائج في شكل نقاط كالتالي:

1. إن تحول أدب الرحلة إلى أدب الهجرة يمثل تغييرا جذريا في تركيبة الأدب وموضوعاته، ففي أدب الرحلة، كانت الرحلات تصوّر كمغامرات مثيرة تستكشف فيها الشخصيات أماكن جديدة وتجارب مختلفة. أما في أدب الهجرة، فإن التركيز ينصب على تجارب الشخصيات المهاجرة وتحولاتهم النفسية والثقافية أثناء تكيفهم مع بيئات جديدة، إذ يظهر هذا التحول تطورا في تفكير الكاتب وتركيزهم على قضايا أكثر عمقا مثل الهوية والانتماء والصراعات الثقافية، مما يحسّد تحولا محما في المنظور الأدبي نحو تسليط الضوء على قضايا الهجرة وتأثيراتها على الفرد والمجتمع، وقد أحسن الكاتب تمثيل هذه الشئمة من خلال توضيح أسباب الهجرة والنتائج المترتبة عنها، كالشعور بالاعتراب والصدمة الحضارية.
2. لقد تجلت شئمة الاعتراب في الرواية بأوجه متعددة، حيث أدت في الوجه الأول إلى الشعور بالغربة والانفصال الهوياتي عن الآخر، وفي الوجه الثاني أدت إلى اكتساب شخصية جديدة تدعو إلى الحرية والاندماج في اتخاذ القرارات المصيرية، ثم ما لبثت أن تدرجت إلى غريبتها الأولى نتيجة وجود فوارق عديدة بين الثقافة المحلية والثقافة الجديدة.
3. تم تمثيل التصادم الحضاري في الرواية من خلال توضيح الصراع الثقافي وتجلي التفاعل المزدوج بين الشخصيات الروائية ذات الأبعاد الثقافية المختلفة، والذي يمكن أن يظهر في التصادمات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي تنشأ نتيجة لاختلاف القيم والتقاليد والمعتقدات، وأبرز من مثل هذا

التصادم هو شخصية "نبيل، والفتاة الغربية التي عاشت بدورها شعور الاعترا ب الثقافي الذي يولده الاختلاف الجذري بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية، وهذا من شأنه أن يزيد من وطأة الصراع بين الأنا والآخر.

4. لقد قدمت رواية "عازف الغيوم" رؤية نقدية سوسيو ثقافية لعلاقة الإنسان بالمجتمع في سياق التصادم الحضاري بين الشرق والغرب عن طريق تقديم تساؤلات حول الهجرة وأسبابها، والهوية ومقوماتها، كما تناولت ثنائية الانتماء والاعترا ب، وأطنبت في تحليل آثار الانصهار السلبي في الثقافة الغربية من طرف الإنسان الشرقي.

5. أكدت الرواية أن الرحلة القسرية (الهجرة) تتسبب في شعور عميق بالاعترا ب والتصادم الحضاري، حيث يواجه المهاجرون تحديات في التوفيق بين ثقافتهم الأصلية والمجتمع الجديد. هذا يؤدي إلى شعور بالانعزال والانقسام الداخلي نتيجة لاختلاف القيم والعادات. علاوة على ذلك يعمق التصادم الحضاري هذا الاعترا ب، مما يجعل التكيف مع المجتمع الجديد صعباً ومعقداً.

هوامش:

- ¹ شوقي ضيف، 1987، الرحلات، ط1، القاهرة، دار المعارف، ص5.
- ² صالح جديد، (2017)، أدب الرحلة جسر للتواصل الحضاري والتعدد الثقافي قراءة في رحلات القدامى والمحدثين، مجلة مقاربات، جامعة الجلفة، مج2، ع28، ص79.
- ³ فؤاد قنديل، 2002، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، ص26.
- ⁴ حسن شحاتة، 2008، الذات والآخر في الشرق والغرب، ط1، القاهرة، دار العالم العربي، ص17.
- ⁵ خميسي آدي: "الرحلة: مؤنجات تشكّل الصورة وأقنعة التمثيل والتمثيل"، مجلة أبولوس، جامعة سوق هراس، مج6، ع1، جانفي 2019، ص74.
- ⁶ ماجدة حمود، 2013، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، د.ط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص103، 104.
- ⁷ محمد رفعت، 2015، الآخر بين الرؤية والشاشة، د.ط، مصر، دار المعارف، ص12.
- ⁸ سعيد علوش، 1985، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ص98.
- ⁹ عبد الرحمان بوعلي، (2020)، الصورولوجيا وإشكالية التمثيلات الأدبية، مجلة دراسات وأبحاث، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مج12، ع2، ص80.
- ¹⁰ إبراهيم بوخالفة، (2017)، الرحلة والآخرية، حوليات جامعة الجزائر 1، ج2، ع31، ص69.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص301.
- ¹² حسين محمد فهم، 1989، أدب الرحلات، د.ط، الكويت، عالم المعرفة، ص15.

- ¹³ علي مُحمَّد نزال الذبابات، (2017)، الاعتراب ومناهة الذات في رواية "أعالي الخوف" لهزاع البراري، مجلة معارف، البويرة، الجزائر، مج 12، ع 23، ص 72.
- ¹⁴ حنان بومالي، 2017، الاعتراب وتحولات النص الشعري لبلند الحيدري، ط 1، الجزائر، دار ابن الشاطئ، ص 12.
- ¹⁵ محمود رجب، 1988، الاعتراب سيرة مصطلح، ط 3، مصر، دار المعارف، ص 5.
- ¹⁶ ينظر: حليم بركات، 2006، الاعتراب في الثقافة العربية مناهات الإنسان بين الحلو والواقع، ط 1، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 59، 60.
- ¹⁷ علي بدر، 2016، عازف الغيوم، ط 1، إيطاليا، منشورات المتوسط، ص 35.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 40.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص 104.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص 96.
- ²¹ المصدر نفسه، ص 36.
- ²² المصدر نفسه، ص 41.
- ²³ المصدر نفسه، ص 17.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص 49.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص 23.
- ²⁶ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص 71، 72.
- ²⁸ المصدر نفسه، ص 104.
- ²⁹ المصدر نفسه، ص 89.
- ³⁰ المصدر نفسه، ص
- ³¹ شعيب حليفي، 2002، الرحلة في الأدب العربي، ط 1، الكويت، شركة الأمل، ص 86.
- ³² علي بدر: عازف الغيوم، ص 52.
- ³³ المصدر نفسه، ص 81.

قائمة المصادر والمراجع:

I. الكتب:

1. حسن شحاتة، 2008، الذات والآخر في الشرق والغرب، ط 1، القاهرة، دار العالم العربي.
2. حسين مُحمَّد فهم، 1989، أدب الرحلات، د.ط، الكويت، عالم المعرفة.
3. حليم بركات، 2006، الاعتراب في الثقافة العربية مناهات الإنسان بين الحلو والواقع، ط 1، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
4. حنان بومالي، 2017، الاعتراب وتحولات النص الشعري لبلند الحيدري، ط 1، الجزائر، دار ابن الشاطئ.
5. سعيد علوش، 1985، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط 1، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

6. شبيب حليفي، 2002، الرحلة في الأدب العربي، ط1، الكويت، شركة الأمل.
7. شوقي ضيف، 1987، الرحلات، ط1، القاهرة، دار المعارف.
8. فؤاد قنديل، 2002، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب.
9. علي بدر، 2016، عازف الغيوم، ط1، إيطاليا، منشورات المتوسط.
10. محمد رفعت، 2015، الآخر بين الرؤية والشاشة، د.ط، مصر، دار المعارف.
11. محمود رجب، 1988، الاعتراب سيرة مصطلح، ط3، مصر، دار المعارف.
12. ماجدة حمود، 2013، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، د.ط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

II. المجلات العلمية:

13. إبراهيم بوخالفة، (2017)، الرحلة والآخرية، حويلات جامعة الجزائر1، ج2، ع31، من 61 إلى 77.
14. عبد الرحمان بوعلي، (2020)، الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، مجلة دراسات وأبحاث، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مج12، ع2، من 71 إلى 80.
15. صالح جديد، (2017)، أدب الرحلة جسر للتواصل الحضاري والتعدد الثقافي قراءة في رحلات القدامى والمحدثين، مجلة مقاربات، جامعة الجلفة، مج2، ع28، من 79 إلى 89.
16. علي محمد نزال النيابات، (2017)، الاعتراب ومناهة الذات في رواية "أعالي الخوف" لهزاع البراري، مجلة معارف، البويرة، الجزائر، مج12، ع23، من 71 إلى 86.